العقـــل العربى بين عهدين
قبل الإسلام وبعده [1]
بعض صوره فى الأدب

بقلم عبد اللطيف المغربى
المدرس بمعهد التربية للبنات

٢

جلونا فى مقالنا السابق صوراً من العقل العربى قبل الإسلام، وصورا جديدة رائعة له بعد الإسلام - فى التشريع، والعلوم، والفنون والجدل، والمناظرة - مما يعد أثمن ذخيرة فكرية ظفرت بها العربية ونهضت بها الإنسانية، وأحفل جمع من الشكول الممتازة بطابعها الإسلامى، وسموها الروحى، لم يع مثله التاريخ، ولم تطرب بشبيه له أذن الزمان. وفى مقالنا هذا نعرض للعقل العربى من الناحية الأدبية، فى الجاهلية عصر السذاجة والفطرة، وبعد الإسلام حين توافرت العصور على إنضاجه، وتواثبت عليه العوامل، وتزاحمت الآمال، وانفسحت امامه مطالع الفكر، واتسعت آفاق الحقيقة والخيال، وتواردت عليه صور الترف والنعيم فياضة، وتأتت له مظاهر الفلسفة والحكمة عذبة سائغة، فكرع ما شاء أن يكرع من تيارات الفكر والاجتماع المتلاطمة حوله، ونهل ما أحب أن ينهل من رحيق الأزاهير الحيوية الباسمة الناضرة أمامه، فإذا به ملتقى تراث الأوائل والأواخر، وطائر غرد فى رياض الأدب يشدو بأروع الأمانى والآمال، وأطيب الأغاريد والألحان،

(١) انظر المقال الأول فى « صحيفة دار العلوم » العدد الثالث (ص ٦٨ - ٧٥)

ويتسمع إلى متع الحياة ومباهجها وأسرارها وحكمها ، فيرسلها فى منفسح الكون وطيات العصور ، خفقات مصورة لقلب الإنسانية ، وخلجات لضميرها محددة .

ونحن إذا أوغلنا فى مناحى الأدب ، وحاولنا أن نعرضها على أقرب ما يكون من صور الإجمال والإيجاز ، فقد عرضنا لخضم عجاج لا قبل لنا بغمره ، ولقينا من وراء ذلك عنتا ينضى الهمم ويفل العزائم ، وأعوزتنا الساحة التى نعرض فيها الكثير الجم من ذخائره ، والممتع العذب من نفائسه . لهذا نرد وجه القلم إلى أيسر الطرق وأقرب الغايات ونعرض على القراء الكرام صورة من صور العقل العربى نبين لهم فيها نموه وتدرجه ، وأثر الأزمنة والثقافات المختلفة فى تغذيته وإنضاجه حتى كانت ثماره المختلفة أصدق مرآة وأدق مقياس لمراتب تدرجه وترقيه فقوى واستشرى ، وتعمق فى المعانى واستقصى ، وعاد لا يقنع بما توحى به الفطرة الساذجة ، واللمحة الطارئة ، وتتبع المعنى الواحد موغلا فى مناحيه وأعطافه ، حتى وصل منه إلى الغاية التى ليس وراءها لمستزيد مطلب ، وأفرغ عليه ألوانا زاهية انتزعها من روح العصور المتعاقبة . انظر إلى خفقته الجاهلية حول الموت وما يلابسه من أحوال . يقول الأسود بن جعفر النهشلى :

ولقد علمت سوى الذى نبأتنى أن السبيل سبيل ذى الأعواد :
أن المنية والحتوف كلاهما يوفى المخارم يرقبان سوادى
لن يرضيا منى وفاء رهينة من دون نفسى طارفى وتلادى

ويقول المرقش الأكبر :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم
يهلك والد ويخلف مو لود وكل ذى أب يتيم

وهاتان صورتان للمعنى فطريتان ساذجتان تدوران حول أن الحياة منتهية إلى ما انتهت إليه حياة السابقين ، وأن الموت يرقب شخص الشاعر ولن يرضى منه وفاء للرهن إلا نفسه ، وأن ليس على طول الحياة المحبوب إذا فات ندم ما دامت عقبى الحياة الموت ، وما الحياة إلا حركات متعاقبة تتكشف عن أب يذهب ومولود يخلفه ، وكل ذى أب سيفقده وكل أولئك وحى التجربة والمشاهدة ، والصورتان أصدق مراتين للعقل الجاهلى فى قرب متناوله للمعنى وسذاجة الفكرة .

ثم استقبل معى بإعجاب وإجلال هذا المعنى من صقر الشعراء المتنبى ، حيث سما فيه إلى غاية بعيدة ، ونال منه ما لم يسبق إليه ، فقال :

لا بد للإنسان من ضجعة ... لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه ... وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى ، فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هى من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ، ... وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى ... حسن الذى يسبيه ، لم يسبه
يموت راعى الضأن فى جهله ... ميتة « جالينوس » فى طبه
وغاية المفرط فى سلمه ... كغاية المفرط فى حربه

فانظر إلى ما تختال فيه هذه الصورة الشعرية للمعنى من ألوان وثمار منوعة هى ثمرة الحضارة ، وفيض لغزير الثقافة . ألست تجد أثر الفلسفة ظاهراً جليا فى فكرة المتنبى ؟ إنه يحدثنا عن تناشؤ الأرواح من كرور الأيام ، ويرى طبيعيا أن ترجع إلى مصادرها ، لأنها من كسب الزمن :

تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هى من كسبه

ثم هو يتكلم فى تركب الإنسان من جوهرين : لطيف وهو الروح ،

وكثيف ، هو الجسم ، فاللطيف من الهواء ، والكثيف من التراب، متأثرا بقول الحكماء : اللطائف سماوية ، والكثائف أرضية ، وكل عنصر عائد إلى عنصره :

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

وقد ملح فيلسوف الشعراء المعرى وظرف حيث ألبس المعنى ثوبا جديداً رائعا ، وأفاض عليه صورا حسية تهز القلب ، وتثير كوامن الوجدان وتأخذ على النفس منافذ الأمل ، فإذا بها رهينة الياس ، حليفة الحزن ، ضيقة منقبضة ، فاستمع اليه والمس قلبك لا يطر شعاعا من الهول إذ يقول :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى
وشبيه صوت النعى ، إذا قيـ ـس ، بصوت البشير فى كل نادى
أبكت تلكم الحمامة ، أم غنـ ـت على فرع غصنها الميادى ؟
صاح ! هذى قبورنا تملأ الرحـ ـب ؛ فأين القبور من عهد عاد ؟
خفف الوطء ، ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا ، وإن قدم العهـ ـد ، هوان الآباء والأجداد
سر ، إن اسطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد

قف أمام هذه القطعة الخالدة وصوب النظر وصعده فيها تجدها قد غمرتك بمعانيها المختلفة الرائعة ، وفاجأتك بغرائب تلبس منك أعمق الوجدان ، وتسير من نفسك فى أدق مسالك الشعور . وهل بعد أن الناس تفنى وتحور أجسادها رمادا تطؤه الأقدام ، وأن ليس مكان خاليا من تراب أجسامهم ، ما هو أدعى إلى الأسى وأفتك بالقلب ؟ ولقد

ألح اليأس والحيرة على شاعرنا المتألم فدفعاه إلى تلمس طريقة يتقى بها هوان الآباء والأجداد بالمشى على بقايا أجسادهم ، فلم يجد أمامه إلا الدعوة إلى الطيران فى الهواء ، وما إلى ذلك من سبيل . وفى القطعة معان مؤثرة ندع إلى القارىء أن يتعرفها بنفسه ، ويزنها بخبرته ، فإنها ستثير منه شعورا وتحرك فى نفسه أسى .

وقد انتهت الزعامة فى هذا المعنى إلى الشاعر الفيلسوف المتحير عمر الخيام . فقد تأثر بهذا المعنى تأثرا عميقا ، وأبرزه فى عدة صور لمكانته من نفسه ، وسيطرته على شعوره ؛ وقد شاء أن يصوغه فى قوالب حسية ، كما هى ميزة العقل الآرى ونزعته . فاستمع إليه إذ يقول فى الصورة الأولى :

ولكم خلت ما اقتطفت بنفسج
وترفقت أنه بين عوسج
وهو خال نام بخد فتاة
بدر حسن فى ظلمة القبر غابا
وثغور الأزهار يا ذا الحبيب
من ثغور سناؤها محجوب
لك قلب وفى الأديم قلوب
ضجعة اللطف فوق هذا النبات
فهو نام من أكبد النائمات
فى مهود فيها السبات عميق
لا مفيق منه بهن أهابا

ويقول فى صورة ثانية يصف طينة فى يد الخزاف :

وكأنى أسمعت بين يديه
صوت ذات مظلومة تشتكيه

آه رفقا فأنت طـــين وماء .
أيهـا المرء لا تسمنى العـذابا
إنما ارفق فسوف تطلب رفقا
من حريف تزول أنت ويبقى
فبقايا الأسلاف ما أنت منـه
صانع ما يحـــير الألبابا

ويقول فى صورة ثالثة يصف أثر رش الأرض بالماء :

ماجزافا ما قد أراق السقاة
لا ، لعمرى، بل تلكم صدقات
إنما الترب يا ندامى رفات
فليريقوا فتلكم القطرات
لكبود تذيبهـــا الحسرات
وليريقوا لعلهـــا مطفئات
لوعة فى الثرى توجج التهابا

والحق أن الشاعر قد أبدع وأحسن ، فأتى بمعان مختلفة للمعنى الواحد، وانتحى به ناحية الاختراع والابتكار. ففى الصورة الأولى تصور أن الأزهار نامية من خدود فى ظلمة القبر ، وأن النبات نام من كبود فى مهد الموت ، مهد السبات العميق . وفى الثانية يصور لك أن الطينة فى يد الخزاف تئن وتشتكى وتطلب رفقا ، وأنها من بقايا الأسلاف . وفى الثالثة يحمد للسقاة مايصبونه على الأرض من الماء لأنه يسقى ترابا هو رفات الآباء والأجداد ، ويسقى كبودا حرّى فى الثرى .

فهل بعد ذلك إجادة وثروة فكرية ينفق منها الشاعر ما شاء فى تصوير

المعنى الواحد ؟ إن هذا حظ من الإتقان والإبداع لا يوفق إليه إلا من أوتى عقلا عظيما متوثبا . وعندى أن هـذا الخصب والنماء العقلى فى عمر الخيام وليد مزاجين : مزاج فارسى آرى ، ومزاج إسلامى سامىّ ، وقد عاوناه على إبراز هذا المعنى فى الصور المختلفة السابقة .

نقول هذا بعد أن سقنا هذه الثمرة الشهية فى الأدب ، ووضحنا طريقة يجب أن يدرس على غرارها كثير من الموضوعات فى الأدب العربى . ونحب أن نشير إلى دعاة التجديد وإلى المتصدرين لزعامة الأدب أن ينهجوا مثل ذلك الطريق فى بيان كنوز الأدب وكشف نفائسه ، وذلك أفضل وأجمل من كثرة الصياح والجلبة بلا طائل ، وأن يحببوا إلى الناشئين الأدب العربى بمثل هـذه الثمرات المرجوة المدخرة ، بدلا من الهيام بالأدب الفرنجى ، والتفخيم من شأنه ، والإغراق فى امتداحه ، وتهوين أمر الأدب العربى ، إن كانوا يريدون بلغتهم وقوميتهم الشرقية خيرا ، وكفانا ما زحفت به علينا المدنية الغربية من ألوان التفكير والأساليب ، وما غمرت به حياتنا الاجتماعية من نزعات وصور ، تذوقنا الكثير منها ، فألفيناه مرا مجافيا لأمزجتنا ونشأتنا ، وأصبحنا نئن منه ومن نتائجه .

هذه كلمة نسوقها فى إخلاص وحسن نية إلى المعجبين بالأدب الغربى ، الغاضين من شأن أدبهم ، وموعدهم معنا الأعداد التالية نطالعهم فيها بروائع أدبنا العربى .

عبد اللطيف المغربى